

جبله بلدة السلطان إبراهيم بن الأدهم والمجاهد الشيخ عز الدين القسام

د.أحمد حلواني *

أثارت الأحداث الجارية في سورية منذ آذار (مارس) ٢٠١١م اهتمام العالم بجغرافية سورية ومواقعها التاريخية ومكتنزاتها الأثرية والتعريف ببلدانها ومدنها وقراها وشواهد تاريخ إنجازات شعبها العريق. في القديم والحديث.

من هذه البلدان مدن الثغور على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، (الممتد من خليج اسكندرون الى ساحل غزّة، حيث يبدأ برّ الشام، بعد برّ مصر). متوقفين عند أشهرها تاريخياً بين المدن السورية والتي تقع بين اللاذقية وبانياس، وهي بلدة، جبله، والتي تحمل اسماً أو تعريفاً مرافقاً له، هو، الأدهمية، نسبة إلى السلطان إبراهيم بن الأدهم، أحد أعلام الصوفية في الإسلام (وفق د. عبد الحليم محمود في كتابه الذي أصدرته سلسلة أعلام العرب عن الهيئة المصرية للكتاب) والذي قدّم إليها متصوّفاً متنسكاً، من خراسان تاركا وراءه جاه السلطانية وثروة أسرته، حيث أقام فيها متزهّداً في إحدى مغاراتها البحرية حتى وفاته، وتبعته أمّه التي عُرفت بأُمّ السلطان، باحثة عنه مع قافلة كبيرة من المرافقين، فأشادت إلى جانب قبره جامعاً كبيراً بطراز معماري جميل ما يزال معلماً دينياً ومعمارياً هاماً يحمل اسمه (جامع السلطان إبراهيم بن الأدهم) وأوقفت له أراضٍ زراعية وعقارات وحمّاماً كبيراً على أحسن طراز، لتأمين استمراريته ونفقات صيانتته وأجور عمّاله

• أستاذ جامعي سوري

و إطعام المحتاجين ونزلاء تكاياه، وجرّ المياه العذبة له من نبع الفوّار القريب منه بحدود ثلاثة كيلومترات للشرب والنظافة، وتشغيل الطاحون الحجري بقوة سقوط الماء من برّ البلدة العالي على شاطئ البحر.

تأخذ جبلَة اسمها وفق روايات كثيرة منها : ما يعيده إلى (جبلَة بن الأيهم)، لكن الغالب في أصل هذه التسمية هو علوّها الصخري عن مستوى الساحل البحري حيث ترتفع بشكل ملحوظ عن مثيلاتها من المدن المحاذية للشط الشرقي للمتوسط كما هو حال اللاذقية وبانياس وطرطوس وطرابلس، فيكون اسم جَبَلَة هو نوع من التصغير عن الجبل على غرار جُبَيْل اللبنانية.

لهذه البلدة تاريخ عميق بالقدّم و تقوم الكثير من فرق التنقيب بدراسة التلال المنتشرة بها كتلّة التوينة وتلّة سوكاس وغيرهما.

أمّا في الحقبة الفينيقية فقد كان ميناء البلدة من الموانئ النشطة، حيث وضع بحّارة البلدة حجارة كبيرة من الصخور بشكل مدرّوس لحماية الميناء الطبيعي من أمواج البحر العاتية، وكسرها في بعض فصول السنة.

وكان الميناء يستخدم لنقل صوف حماة، المحمول على قوافل الجمال القادمة على الطريق الجبلي الوحيد الذي يخترق جبال الساحل السوري عبر القدموس، قبل فتح طريق حماة- الغاب-بيت ياشوط- جبلَة، ليدخل جبلَة عبر بؤابة حماة التي ما تزال تحمل الاسم نفسه، وخان شعيب الذي كان يؤوي القافلة ودوابها كما كل الخانات التاريخية. ومن ميناء جبلَة ينتقل هذا الصوف إلى موانئ البحر المتوسط المختلفة، والذي عُرف بالأرجوان الأحمر المصبوغ من قبل الصبّاغين الحمويين الذين يستخدمون النباتات التي تنمو على ضفاف نهر العاصي وبادية الشام الغنية، للوصول إلى أفضل أنواع الصباغ ثابت اللون.

مازالت هذه البلدة الصغيرة تحتفظ بقلعتها التاريخية التي فتحها صلاح الدين الأيوبي واسترجعها من الصليبيين مع مدّرجها ذي الطابع الروماني بتعاون كبير من أهلها الذين أرسلوا لصلاح الدين يعلمونه باستعدادهم للتعاون مع جيشه للخلاص من الاحتلال الصليبي للبلدة، ونقلوا له المواقع الأفضل لاختراق مراكز الدفاع الصليبية، والتي حققت فتح البلدة بسرعة كبيرة.

ومما يجدر ذكره أن المدّرج مازال قابلا للاستخدام كمسرح مكشوف حيث مازالت جمعية عاديّات جبلَة الثقافية التي يديرها الناشط جهاد جديد والحقوقى طه الزوزو، ويحضر مهرجاناتها الثقافي والفني السنوي كبار المثقفين والفنانين السوريين والعرب. وذلك قبل الأحداث السورية الجارية الآن.

كانت جبلة تتبع في غالب العهود ولاية طرابلس ومازال المشترك بين المدينتين الجامع المنصوري من حيث التسمية والطراز المعماري الواحد والجميل بقبابه ووحداته ومآذنه. إضافة إلى قرابات عائلية كثيرة، ولهجة متقاربة، كما كانت تتبع في أحيان أخرى إلى اللاذقية وحلب التي تبعد عنها حوالي مائتي كم فقط.

اشتهر من هذه البلدة في العصر الحديث عددٌ كبير من رجالها، ولعل أشهرهم الشيخ المجاهد عز الدين القسام الذي درّس في الأزهر الشريف في القاهرة، وعند عودته إلى جبلة بعد تخرّجه، وجدّ المستعمر يقبُح على صدر وطنه بقسوة، فأثر الجهاد من أجل طرده وتحقيق الاستقلال، ونظراً لصغر البلدة وبعدها عن الطريق العام الرابط بينها وبين الطريق الساحلي إلى لبنان وفلسطين، والداخل السوري، تطوّر معه عدد من أهالي جبلة وخرجوا إلى ريف بلدة الحفة القريبة منها حيث مارسوا من بساطتها، وبتعاون الكثيرين من أهلها، عملياتهم ضد القوافل العسكرية الفرنسية التي كانت تصل عبر مرفأ اللاذقية وتنتقل إلى الداخل السوري. وعند معرفة الفرنسيين بالقسام قائداً لهذه العمليات، نتيجة إخبارية من بعض العملاء، حكموا عليه بالإعدام فهاجر ورفاقه إلى فلسطين هرباً من المحتل الذي كان يحكم سورية ولبنان، وفي فلسطين تابع جهاده المعروف ضد المحتل البريطاني الذي كان يجثم على أرضها حتى نبهه الشهادة.

الجدير ذكره أيضاً أن عائلات القسام والمجاهدين الآخرين من رفاقه الذين استوطنوا فلسطين عادوا بعد نكبة فلسطين إلى بلدتهم الأصلية جبلة، مع عدد من أصدقائهم ومعارفهم حيث لقوا من أهالي البلدة كل ترحيب ومساعدة أخوية، فأصبحت عائلتنا القسام والصهيوني تقسما إلى قسمين سوري وفلسطيني حتى الآن. في ظل المحبة والتعاون الخالص.

لقد بقيت هذه البلدة تخرّج العدد الكبير من المجاهدين والعلماء (والأسماء كثيرة والأعمال كبيرة من رجال ونساء) بالرغم من ضعف إمكانياتها المادية ومن الإهمال الذي أصابها، والذي أدى إلى هجرة غالبية نشطائها، وانقطاع صلاتها التجارية والثقافية مع طرابلس الشام بعد وضع حدود للدولتين السورية واللبنانية، والقطيعة الجمركية بين البلدين التي فرضها خالد العظم رئيس الوزراء السوري آنذاك. وبعد اغلاق الطريق الساحلي والبحري، بينها وبين المدن الفلسطينية، نتيجة نكبة ١٩٤٨م وقيام إسرائيل.